

الباب الأول

ميلاد ولي عهد

لا يمكن أن يقال عنه إنه ما استحق أن يولد

« لويس برتران »

في صبيحة يوم ٥ سبتمبر سنة ١٦٣٨ دوى في كل أنحاء فرنسا قصف المدافع المدوية ، وتجاوبت في أصداؤها دقات أجراس الكنائس العالية ، واعتقد الناس أن الجيوش الفرنسية قد كسبت إحدى المعارك في الحرب الناشبة بين فرنسا وأسبانيا ، ولكن إطلاق المدافع وقرع النواقيس استمر وقتاً طويلاً ، فأدرك الناس أنها تنفيء بلا شك عن حادث سعيد ، وسرعان ما تحقق ظنهم ، فإن هذا كان إعلاناً للشعب الفرنسي بأن آن دوتريش ملكة فرنسا وضعت ولياً للعهد في قصر سان جرمان .

استقبل الفرنسيون هذا النبأ المنتظر بفارغ صبر منذ عهد طويل ، بكل سرور واعتباط فأقاموا صلوات الشكر في الكنائس والمعابد ، وتوافدوا بجموع غفيرة إلى قصر سان جرمان وهم يهتفون من أعماق قلوبهم للملك والملكة وولي العهد معبرين بذلك عن بالغ فرحهم بالمولود الجديد ، وتبادلوا التهاني ، ورقصوا في الشوارع والميادين ، ورفعوا الأعلام على دورهم ، وأقيمت الولائم والحفلات في قصور الأمراء

والنبلاء المنيفة ، وفي أكواخ العمال البسيطة . لقد عم السرور كل مكان فشمّل فرنسا من أقصاها إلى أدناها ، وظل الشعب في مرح هاتفا بكل إخلاص للأسرة المالكة أياماً ، حتى لم يعد يفكر إلا في ولي العهد .

وكان سبب اغتياط الفرنسيين بمولد ولي العهد ، أن لويس الثالث عشر ملك فرنسا كان قد تزوج سنة ١٦١٥ من آن دوتريش شقيقة ملك اسبانيا ، ومرت السنوات سراعا دون أن يشجب ورثاً لعرشه ، فضلا عن أنه أصيب بمرض عضال وساءت حالته الصحية وأصبحت تنذر بالخطر فقلق الشعب على مليكه وعلى مصائره ، وخشى أن يموت الملك دون أن يكون له ولد يتبوأ عرشه من بعده فيتولا شقيقه جاستون دورايان الذي كان مكروهاً من الجميع .

فلا غرو والحالة هذه إذا فاق ابتهاج الشعب كل حد فأقام معالم الأفراح والسرور واحتفى بمولد ولي العهد أروع احتفال وعلق عليه آماله وتمنى أن يكون مولده فاتحة خير للوطن ، فتستتب الأمور وتنتهى الحروب ويتوطد السلام ويعم الرخاء .

اقترن ميلاد ولي العهد بخير عميم للبلاد ، فقد أعلنه ريشيليو ، وزير لويس الثالث عشر وصاحب النفوذ المطلق في البلاد ، أن الجيوش الفرنسية أحرزت انتصارات باهرة في الراين وفي الفلاندر ، كما قامت هزيمة في البرتغال وكاتالونيا وكانتا تابعتين لاسبانيا وأعلنتا انضمامهما إلى فرنسا .

سمى ولي العهد باسم لويس هبة الله ، وعكفت الأسرة المالكة على تربيته والعناية به فأخذ ينمو ويتزعرع ، وبدأت عليه دلائل الصحة والنشاط وقوة البنية . وكان يمتاز بعينين كستنائيتين جميلتين ، وأنف دقيق ، وثغر بسام . وبعد سنتين من مولده وضعت الملكة مولوداً جديداً منح اسم فيليب دوق أنجو .

ورحل لويس الثالث عشر مع وزاره ريشيليو إلى الحدود الأسبانية لتفقد القوات الفرنسية التي تحارب هناك ، بالرغم من ازدياد التهديد باندلاع نيران الحرب الأهلية في فرنسا ، وبقيت الملكة مع ولديها في سان جرمان بعد أن اتخذت كل الاحتياطات الكفيلة بالمحافظة عليهم .

عهد بتربية الأميرين إلى سيدة عظيمة اسمها مدام دي لانزاك ، وبحراستهما إلى الكابتين دي مونتيني الضابط في الحرس الملكي ولم تكن الحرية تسمح بأى حال لدوق دورايان وعمهما ، بالاقتراب من ولي العهد إذا كان معه ثلاثة رجال فأكثر ، أما إذا كان بمفرده فيمكنه أن يراه بشرط أن يكون ضابط الحرس حاضرا معه لا يفارقه لحظة واحدة طيلة الزيارة مهما كانت الدوافع والأسباب .

وكانت مهمة الكابتين دي مونتيني هذا شاقة جدا ، تتطلب منتهى اليقظة والحذر ، فقد أعطاه الملك قبل رحيله نصف جنيه من الذهب وأوصاه ألا يسمح لأى شخص برؤية الطفلين حتى ولو قدم له أمراً

ملكياً بتوقيع الملك نفسه يبيع له الدخول في حجرة الأميرين لمشاهدتهما ، إلا إذا كان هذا الأمر مرفقاً به النصف الثاني من الجنيه الذهبي الذي كان لويس الثالث عشر يحتفظ به لهذا الغرض وذلك لضمان سلامة ولديه ، والتأكد من بقائهما في مأمن من الوقوع في يد أعدائه أو في يد الطامعين في العرش ، الذين قد ينتهزون فرصة غياب الملك فيعملون على التخلص من الطفلين ليخلو لهم الطريق .

ولم تكن هذه الاحتياطات الدقيقة عن مجرد وهم أو شك ، وإنما كان لها ما يبررها ، فقد حدث أثناء رحلة قامت بها الأسرة المالكة إلى الجنوب أن اكتشفت مؤامرة لاغتيال الطفلين كان قد اشترك في تدبيرها أحد كبار رؤساء الأساقفة ، ودى تو مستشار الدولة ، وأثبت التحقيق اشتراك جاستون دورليان شقيق الملك فيها ، وحكم على الأسقف ومستشار الدولة بالإعدام ونفذ فيهما الحكم في مدينة ليون ، كما نفى جاستون دورليان من البلاد . ورجعت الأسرة المالكة ورشيليو إلى باريس .

مرض ريشيليو فلزم قصره العظيم القريب من النويلرى ، ولم يخرج منه إلا محمولا على الأعناق ليشيع إلى مشواة الأخير ، وخلف لمولاه لويس الثالث عشر هذا القصر المنيف ، كما ترك له رجلا نابها كان موضع ثقته التامة وهو الكردينال « مازاران » الذي طالما حدث الملك عن مواهبه وتفانيه في العمل وإخلاصه للبلاد ، وأكد له قبيل وفاته أنه هو وحده الجدير بأن يخلفه في منصب الوزارة ،

كما أستطاع ريشيليو أن يوجد لفرنسا مقاما عظيما بين سائر الدول الأوروبية ، وأن يوطد الأمن في ربوع البلاد . وأن ينظم الحالة المالية ويترك في خزائن الدولة أموالا طائلة .

واتبع الملك مشورة ريشيليو ونفذ رغبته بأن عين الكردينال « مازاران » محله ، ومرض الملك فلزم فراشه أيضاً واشتدت عليه وطأة المرض . ولما أدرك دنو الأجل المحتوم كتب وصيته ونص فيها على أن تكون آن دوتريش وصية على العرش إلى أن يبلغ الملك الجديد سن الرشد وأن يساعدها في أعمال الوصاية مجلس مؤلف من دوق دورليان الذي نفي من البلاط لاشتراكه في مؤامرة اغتيال ولي العهد وشقيقه ، وأمير كونديه والكردينال « مازاران » وثلاثة وزراء ؛ وأرسل هذه الوثيقة إلى البرلمان لتنفيذها في الوقت المناسب .

وفي ٢١ أبريل سنة ١٦٤٣ احتفل بتعميد ولي العهد في كنيسة سان جرمان ، وبعد الاحتفال أدخل إلى غرفة أبيه المريض فسأله قائلاً : ما اسمك الآن ،

أجاب الأمير على الفور قائلاً : لويس الرابع عشر .

فربت أبوه على كتفه وقال له متلطفاً : لما يحن الوقت بعد .

ويبدو في هذه المحادثة القصيرة أن ولي العهد كأنه كان يتكلم بالهام ، ذلك لأن المرض أشد فجأة على الملك وأخذت قواه تنهار بسرعة ودلت الأحوال على أنه يسير بخطى سريعة نحو النهاية المحتومة وفي ١٠ مايو رأى حلاً وهو أن دوق دانجيان الذي أصبح فيما بعد

دوق كوندية العظيم قد انتصر انتصاراً رائعاً حاسماً ، وقد تحقق هذا الحلم فعلاً . فإنه في ١٩ مايو انتصر هذا القائد الشاب في « روكروا » ولكن الملك لم يعش ليرى تحقيق نبوءته لأنه في ١٤ مايو سنة ١٦٤٣ دوت في سان جرمان هذه الصيحات التقليدية :
مات الملك . . . يحيا الملك .

وفي نفس اليوم أعلن تنصيب « لويس هبة الله » ملكاً لفرنسا باسم لويس الرابع عشر .

وفي اليوم السابق لانتصار دوق دانجيان في موقعة روكروا . ذهبت ملكة فرنسا مع ابنها إلى قصر اللوفر ليؤدي الملك الجديد لويس الرابع عشر اليمين الدستورية . وكان القصر قد أعد أعظم إعداد لهذه المناسبة السعيدة ، فاجتمع في القاعة الكبرى أعضاء البرلمان وهم يرتدون ملابسهم الحمراء التقليدية . وحضر الأمراء والدوقات والنبل وكبار رجال الدين وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم . وبعد أن اتخذ كل المدعويين أماكنهم ، حمل الدوق ددي شفرين ، الملك الطفل لويس الرابع عشر وسار به بتقديمه ضباط الحرس من الأشراف ، ودخل تحوطه العظمة والجلال وأجلس الطفل على مقعد خاص بجانب والدته ووقفت خلفه مربيته . وساد الجلسة سكوت رهيب عندما فضت وصية الملك الراحل وتليت بنودها على الحاضرين وردد لويس الرابع عشر كلمات اليمين التقليدية ، واعتمدت الوصية وأصبحت نافذة المفعول . وبذلك أعطيت الوصاية إلى آن

دوتريش بمساعدة الهيئة التي سبق ذكرها ، وبقى مازاران وزيرا .

لم تعرف البلاد في الشهور الأولى من عهد الوصاية إلا الانتصارات في الخارج والرخاء في الداخل : فقد خفضت الضرائب ، وظهر فريق من المتمردين في البلاط فكانوا يغالون كل ما يطلبون ، وكان الشعب راضيا تمام الرضى حتى يمكن أن يقال إن اللغة الفرنسية انحصرت في هذه الكلمات : « إن الملكة طيبة حقا » .

وانتقلت آن دوتريش والملك وشقيقه وما زاران والحاشية إلى قصر الكردينال ريشيليو الذي أطلق عليه اسم القصر الملكي ، وفيه شعرت الملكة بمنتهى الراحة والهدوء . وكان الملك وشقيقه يمضيان الوقت في الحديقة الفسيحة الجميلة ، فقد كان يحب التمرينات الرياضية العنيفة والهواء الطلق إلا أنه كان مع ذلك يميل إلى الجد والرصانة ، في حين كان شقيقه لطيفا رقيقا يحب اللعب ، حتى كان دائما موضع الملاطفة والتدليل .

وأنشئت في حديقة القصر قلعة صغيرة واختير بعض الأطفال من سن الملك لمرافقته في اللعب والعمل فيها تحت إشراف مدام « دي لاسال » وصيفة الملكة الخاصة التي كانت ترتدى لهذه المناسبة زيا خاصا وتضع على رأسها قبعة عالية مزينة بالريش الأسود وتمسك سيفاً . وكان لويس يجد سرورا عظيما في التمرينات الحربية ولو أنها سببت له أحيانا بعض الحوادث الأليمة ، فقد وقع ذات يوم في جدول ماء

حتى كاد يفرق ، وكثيراً ما كانت ترتفع درجة حرارته فيذهب
محموماً إلى فراشه .

على أن هذه الألعاب لم تمنعه من العمل بكل جد ونشاط في
استيعاب دروسه وواجباته ، فقد اختير لتثقيفه وتعليمه العالم الأب
دى بومون ، والأديب « لاموت لوقاير » كما وقع الاختيار على المربي
دى فيليروي لتكون مربيته الخاصة .

وتدهورت الأحوال المالية في البلاد ، ونفذ الاحتياطي العام —
الذي أذخره ريشيليو — في سد مطالب الحروب المستمرة . فزادت
الضرائب ولكن لم يكن يجبي منها إلا جزء ضئيل منها وبكل مشقة
وصعوبة وتقرر إزاء ذلك منح تخفيض كبير للمولين الذين يسددون
على دفعة واحدة الضرائب المستحقة عليهم عن سنوات مقبلة . فلم
تكن الحياة في بلاط فرنسا في ذلك الوقت على أتم الأبهة والرفاهية ،
فقد ارتبكت أموره ، وأصبح في حالة عسر مالي شديد إلى حد أن الأسرة
المالكة لم تكن تستطيع أن تتناول وجبات الطعام اليومية كاملة ،
فكانت تكتفي في غذائها على الفاصوليا والخبز المغموس في اللبن
ولم يكن يوجد في كثير من الأحيان من هذا الطعام التافه ما يكفي
للوصيفات ، وكانت أغطية فراش الملك مهلهلة ، كما كانت مفروشات
العربات الملكية كثيرة الثقوب والرتوق . فكانت عظمة يكتنفها
البؤس والفاقة .

وكان يشرف على طفولة الملك بكل نزاهة وإخلاص الرجل الوفي

الكردينال مازاران . كان مازاران إيطاليا فلم يستطع أن يتقن اللهجة الفرنسية الصحيحة وقد استطاع أن ينطق بكل زهو وهو على فراش الموت بهذه الكلمات الحقيقية التي برهنت عليها أعماله : كان قلبي فرنسيا ولو لم تكن لغتي فرنسية .

كان مازاران يتفانى في الإخلاص والوفاء للويس الرابع عشر منذ طفولته ، ولم ينس هذا الملك خدمات وزيره وإخلاصه له حتى آخر لحظات حياته ، وقد أخذ عنه حبه للفنون الجميلة وتقديره لكل شيء جميل ، واهتمامه بالأعمال الفنية ، والروح الكريمة السمحة ، وحب العظمة ، وأخذ هذا التأثير يتجلى بأروع صورته في ميول واتجاهات الملك بعد أن انتهت أيام الفاقة والعسر المالى والحروب الأهلية التي اكتوى بنارها في طفولته .

وكانت الملكة ومازاران يبدلان كل مافي وسعهما لمعالجة النظام المالى والعمل على انعاش الحالة المالية والاقتصادية في البلاد ، فقد اتضح لهما بعد طول بحث ومناقشة أن سكان كثير من الجهات يرفضون دفع أية ضريبة جديدة ، وأنه كثيرا ماتنشأ مشاحنات شديدة بين الممولين وبين موظفي الدولة المختصين بحماية الضرائب ، وأن مدنا عديدة ترفض أى تجديد في النظم المالية ، وأن البرلمان كان محور المعارضة في فرض أية ضريبة جديدة أو اقتراح زيادة الضرائب الموضوعة .

كان يوجد في فرنسا في ذلك الوقت برلمانات متعددة موزعة في

المدن والمقاطعات الكبيرة ، وهي بمثابة هيئة قضائية موحدة الاختصاص . وكان برلمان باريس أقدم وأعظم هيئة قضائية في فرنسا وهو يشبه محاكم الاستئناف العليا في الوقت الحالي ، وكان الأعضاء يملكون وظائفهم لأنهم يشترونها بالمال ويورثونها لأبنائهم ويتصرفون فيها بكل حرية كما يتصرفون في أملاكهم وأموالهم الخاصة ، فلذلك لم يكن الملك لا يستطيع أن يفصل أى عضو مما لم يجعل له أى نفوذ على أعضاء البرلمان ، فكانت القرارات التى يصدرها البرلمان فى باريس لا تقبل النقض أو التعديل ، وفى هذا ضمان تام للاستقلال القضائى . وكانت التقاليد تقضى بأن يلجأ الملك إلى البرلمان لإقرار القوانين والأوامر والمراسيم التى يصدرها لتسجيلها واعتمادها لكي تصبح نافذة المفعول ، وكثيرا ما كان البرلمان يرفض القوانين والمراسيم التى يقدمها له الملك وفى هذه الحالة يذهب جميع الأعضاء إلى الملك ويشرحون له أسباب ومبررات الرفض ويقنعونه بوجهة نظرهم ويوجهون إليه ما يشبه التحذير أو الانذار .

وكان أعضاء البرلمان يعارضون بكل قوة أى مشروع قانون بفرض ضريبة جديدة أو رفع قيمة ضريبة مقرره ، كما دأبوا على معارضة كل قانون أو مرسوم يقدم اليهم لاشئ إلا حبا فى المعارضة وإمعانا وقد أدت معارضة البرلمان لمشروع الضرائب الذى أعدته الملكة مع مازاران لتحسين مالية الحكومة إلى حرب أهلية طويلة (سيجىء الكلام عنها فى الباب التالى) .

وبالرغم من ذلك العصر المالى كانت الحرب دائرة بين الجيوش
الفرنسية والاسبانية وقد استطاع دوق دانجيان الذى أصبح أمير كوندية
عقب وفاة أبيه ، أن يوقع بالاسبان هزيمة ساحقة فى د لانس ، فى ٢٦
أغسطس ١٦٤٨ أى قبل أن يتم لويس الرابع عشر السنة العاشرة من
عمره بثمانية عشر يوما .

الباب الثاني

فترة الحرب الأهلية

دقت أجراس الكنائس دقات الفرح عقب صلاة يوم الأحد إعلانا للشعب، الذي أخذ ينتشر في الشوارع والطرق، بانتصار لانس، الحاسم.

قابل الشعب هذا النبأ السار بكل حماس وابتهاج لأنه سيضع حدا للحروب ويحقق السلام المنشود الذي طال انتظاره.

وحضرت الأسرة المالكة صلاة الشكر الخاصة التي أقيمت في كاتدرائية باريس الكبرى ودعى إليها الأمراء ورجال الدولة وأعضاء البرلمان. وبعد انتهائها، توجهت الملكة والملك والحاشية إلى فناء الكاتدرائية حيث وقف أعضاء البرلمان بملابسهم الحمراء التقليدية برئاسة الحكيم ماتيو موليه الذي كان يسميه رجال الأسواق «اللحية الكبيرة»، وأدوا الملك فروض الإجلال والاحترام، ومن ثم استقلت الأسرة المالكة العربات للعودة إلى القصر الملكي وسار الموكب يحيط به الحرس في شوارع المدينة الضيقة، وكان الشعب على طول الطريق يهتف للملك وللملكة هتافات مدوية تشق عنان السماء.

وفي بعض الجهات هتف الشعب لمازاران، وفي البعض الآخر هتف ضده فقد كانت الجماهير تهتف للملك والملكة وجميع الأمراء ما عدا مازاران، كما كان ينادى بشدة في كل مكان بسقوط الضرائب.

سمعت الملكة نداء الشعب الحماسى بسقوط الضرائب ، فلما وصلت إلى القصر أمرت باستدعاء ثلاثة من أعضاء البرلمان الذين تزعموا المعارضة فيما يختص بالضرائب ، مع أنه كان لابد من جبايتها لبقاء القوات الضرورية للحفاظ على السلام ، وهم : بوتييه دى بلافيل وشارتون والمستشار بروسيل ، وبعد مناقشة قصيرة أمرت بالقاء القبض عليهم وسجنهم .

كان الأمر بالقاء القبض على بعض الأشخاص أو الزعماء وسجنهم ينفذ دون أن يثير انتباه الناس أو معارضة أحد ، ولكن في هذه المرة ، أخذ أعضاء البرلمان بالرغم من كراهية الشعب لهم ، يدافعون عن حقوق الشعب ويطلبون حمايته من استغلال الأسرة المالكة ، ويحثونه على العمل على تحقيق هذه المطالب العادلة ، فبذلك ظهروا بمظهر زعماء الشعب الساعين إلى تحقيق رغباته وأمانيه ، فانضم إليهم كثير من الأفراد وأصبحوا يحظون بحب الشعب وثقته

عندما قبض على بروسيل ، أخذت خادمته العجوز تستغيث من نافذة مسكنه الكائن في قلب باريس ، وذهل الناس الذين كانوا يتزعمون ويمرحون في يوم راحتهم الأسبوعية ، فلما علموا بالخبر أظهروا شديد منخبطهم واستغل أعضاء البرلمان هذه الفرصة فعملوا على إثارتهم ، واستجابوا للتحريض فثاروا وساروا في مظاهرات عداائية

في ذلك الوقت كانت توجد في شوارع باريس سلاسل قوية تمتد في الليل للحيلولة دون هروب اللصوص ، فاستعملت هذه السلاسل لمنع سير الدوريات التي وجهها القصر الملكي للحفاظ على الأمن ، وأقيمت المتاريس وتسليح رجال الميليشيا الخاصة بطبقة البورجوازي . كما تسليح الرجال والشبان بالعصى والسيوف القديمة التي عثروا عليها في المخازن والمنازل .

وقام بول دي جوندبه دي ريتز ، مساعد عمه كبير أساقفة باريس على رأس الحركة حيث وجد فيها فرصة سانحة للقيام بدور ثوري كبير إظهارا لخصومته وإرضاء لميوله في الدس والتآمر ومشل دور الوسيط بين البلاط والبرلمان وبالطبع عمل على إثارة النفوس وإلهاب الخواطر وإفساد الأمور وتسميم الأفكار وتفاقم الحالة . وفي اليوم التالي توجه رئيس البرلمان ماتيوموليه ، ومعه رجاله وحاشيته بموكب حافل إلى القصر الملكي للبطالة بالإفراج عن الأعضاء الثلاثة المقبوض عليهم وفتحت المتاريس الكبيرة للسماح له بالسير . فوصل إلى القصر الملكي وهناك لم يحصل إلا على وعود غامضة فعاد أدراجه بموكبه الرائع ، ولكن عند عودته أهين وأسيء إليه من الثوار ، واستمر الشعب في سياسته العدائية وحمل السلاح .

وأخيرا اذعنت الملكة فأمرت باستدعاء بروسيل من قصر سان جرمان حيث كان مسجوناً ، فاستقبله الشعب استقبالا حماسيا منقطع النظر لم يكن يتوقعه إطلاقا فاعتقد أنه أصبح بين غمضة عين وانتباهتها

رجلا عظيما وزعيما خطيرا وسيدا مأبيا بين قومه ودخل القصر الملكي بين هتاف لا مثيل له وعلى دق الاجراس وإطلاق البنادق .

كان المنتظر أن ينتهى هذا الشعب عقب الإفراج عن بروسيل . ولكن هذا الإفراج مع أنه أدى إلى السرور العام إلا أنه لم يؤد إلى القضاء على الفتنة وتوطيد الأمن . ذلك لأن دجوندية ، وصديقه ودوق بوفور ، الذى كان يسمى ملك الأسواق استمرا فى إثارة الشعب خفية ، كما أن البرلمان اغتر بانتصاره فاصر على التمسك بسياسته فى معارضة مشروعات الضرائب التى كانت الحاجة ماسة إليها أكثر من أى وقت آخر لتدبير شؤون الحملة الحربية المتجهة إلى اسبانيا والتى ستكون بلا شك آخر حملة قبل إقرار السلام النهائى .

كان من نتيجة ذلك أن توترت الحالة وأصبحت باريس غير آمنة فى كل لحظة كانت يتوقع قيام شعب وقلاقل وفن بسبب حادث تافه ، وكان يزيد هذه الحالة اضطرابا ، الخطب المثيرة المحرصة على الثورة والتدمير التى يلقيها أعضاء البرلمان ، والمواظ على الحاضنة على الحقد والكراهية التى يلقيها رجال الدين المؤيدون لجوندية مساعد رئيس الأساقفة من منابر الكنائس ودور العبادة ، ودعاية بعض الأمراء الساخطين ، وغرور السيدات المتلفات على القيام بدور سياسى حيا فى الظهور .

ولم يكن لدى القصر الملكي قوات كافية للدفاع عنه ، فإن فرق الميليشيا انضمت إلى البرلمان ، وكان الجيش على الحدود الأسبانية فا

يبقى لحماية الملك إلا عدد صغير من الحرس الفرنسى والسويسرى لا يستطيع الدفاع والمقاومة فى حالة قيام ثورة عامة أو هجوم الثوار على القصر الملكى الذى لم تكن له أسوار عالية تحميه من المغيرين ولسهولة الوصول اليه من حدائقه .

لذلك كله ، كانت الملكة تتوقع هجوما عاما من الثوار ، فقررت أن تنتقل مع ابنها الملك والحاشية إلى مكان أمين ، فانتهزت فرصة ليلة عيد الملوك المجوس (أى عيد الاحتفال بعماد المسيح) فى ٦ يناير سنة ١٦٤٧ . حيث كان الباريسيون لا يفكرون إلا فى اللهو والمرح والشراب والطعام حتى نسوا السياسة والثورة والضرائب ، ورأت الانتقال إلى المكان الذى وقع عليه الاختيار .

فى الساعة الثالثة صباحا اصطفت العربات داخل القصر الملكى فاستقلتها الملكة والملك ودوق أنجو والجراند مدموازيل (ابنة جاستون دورليان) والكردينال مازاران والحاشية ، وخرجت مسرعة إلى الطريق العام .

كان الجنود الذين يتولون حراسة أبواب « سانت أونوريه » أقرب الأبواب إلى القصر الملكى لم يلقوا أى أمر من الرؤساء فتركوا العربات تمر دون أن يهتموا بمعرفة راكبها ، واتجهت إلى قصر سان جرمان وكانت الأسرة المالكة قد هجرته بانتقالها إلى قصر ريشيليو الذى أصبح القصر الملكى .

لم يكن قصر سان جرمان المهجور منذ وقت طويل على أى

استعداد لإقامة الأسرة المالكة ، فقد نقل معظم أثاثه لتجميل وإعداد بعض حجرات قصر اللوفر كما رفعت ألواح زجاج النوافذ ونقلت إلى باريس ، وكان الزجاج غالبا جداً في ذلك الوقت . كما كانت الأسرة المالكة في غاية الفقر إلى حد أن الملك كثيراً ما اضطرت إلى رهن مجوهراتها وحليها الخاصة للحصول على نقود ضرورية .

كان البرد فظيماً في هذا القصر ، حتى كان المرء يرتعد من شدة رطأته في الحجرات الكبيرة التي تتلاطم فيها تيارات الهواء لخلو نوافذها من الزجاج وخلو مدايقها من الوقود . وبعد عشاء شديد وبحر طويل عثر على سرير واحد للملكة والملك وشقيقه ، وضعت عليه أغطية بالية ، وكان هذا مألوفاً حقاً لدى الأسرة المالكة لأن أغطية أسرة القصر الملكي لم تكن أحسن حالا ، وقنع الأمراء وأفراد الحاشية النوم على مراتب من القش اشترت بأسعار باهظة .

ولما علم الباريسيون بالتجاء الأسرة المالكة وأفراد الحاشية إلى سان جرمان ، رفضوا السماح بمرور العربات الخاصة ، التي كانت تحمل اليهم الأثاث والأمتعة والملابس ، ولم يكن لديهم إلا الملابس التي خرجوا بها من باريس ، ولذلك كان كل واحد منهم يغسل أثناء الليل ملابس النهار ويحفظها إلى أن استطاعوا شراء الأثاث الضروري والملابس اللازمة .

في هذا الجو القاتم ، وتحت الرقابة الشديدة التي كان يتولاها لا بورت ، خادم الملك الخاص ، وتحت وطأة البرد القارس ،

وفي وسط تيارات الهواء الثلجية ، كان لويس الرابع عشر يؤدي واجباته ويستذكر دروسه ، وجلس يوما ما أمام مكتبه البسيط ليكتب بأنامله المتورمة من البرد موضوعا إنشائيا أعطاه له أستاذه تحت هذا العنوان : « يفعل الملوك كل ما يحلو لهم » .

كيف يعالج هذا الموضوع وهو الذي اضطر أن يهرب من غرفته أثناء الليل ، ولا يعرف متى يعود إليها ، وهو الذي لا يسمع حوله إلا كلمات الخوف والقلق يتهامس بها المحيطون به في الأروقة والحجرات وهو الذي لا يقع نظره على أمه إلا ويراها باكية حزينة .

إنه كان ملكا ولذلك لم يشك ولم يبك عندما كانت أصابعه المتورمة تؤلمه ألما شديدا ، لماذا يتحدث والحالة هذه عن هذا الموضوع الساخر : « يفعل الملوك كل ما يحلو لهم » ، لقد فهم أمورا كثيرة وهو لا يزال طفلا .

وكان الفريق الصغير من أصدقائه في اللعب في باريس قد تشتت شمله فلم يجد أمامه سوى ابنة عمه (الجراندموازيل) ، ومع أنها كانت فتاة في الحادية والعشرين وهو في العاشرة فقط إلا أنها كانت تتسلى معه وتعلمه ألعاب الورق وتناديه بقولها : زوجي الصغير ، لم يكن ذلك مجرد دعاية بل كان تعبيرا عن رغبة مكبوتة أو حلم تتمنى تحقيقه وهو أن تصبح يوما ما ملكة فرنسا ، إلا أن الملك كان صغير السن ، لم تنضج عواطفه بعد ، لكي يفهم هذه المداعبات العاطفية والتعبيرات الوجدانية ، وإنما كان يجد في اللعب مع ابنة عمه ما يلبيه عن التفكير في أصابعه المتورمة ، وفي البرد القارس الذي ينفذ من النوافذ

الحالية من الزواج ، وفي حياة البؤس التي يحياها وفي مظاهر الضك التي تكتنفه .

* * *

دهشت باريس من رحيل الأسرة المالكة ، وتطورت الدهشة إلى قلق على مصيرها ، أما البرلمان فلم يعبأ بشيء ، واستولى باسم الملك الذي يحاربه على حكومة المدينة ، وكان أول ما اهتم به في هذا الكفاح الناشئ عن رفض تطبيق الضرائب الجديدة ، هو زيادة الضرائب . وعملت حكومة البرلمان هذه على زيادة قوات الميليشيا ، والاستعانة بكبار الأمراء والنبلاء الساخطين المتمردين ، لقيادة هذا الجيش ، وكان منهم أمير كورتى ، الشقيق الأوسط لكونديه العظيم ، وكان هذا الأخير قد عاد من الحرب ووضع نفسه تحت تصرف الملك والبلاط ، وكان معه خمسة عشر ألف جندى نظامى ، وإنما لم يكن في وسعه أن يحسن التصرف والعمل كما ينبغي ، فيضرب حصاراً قوياً حول مدينة كبيرة تضم تسعمائة ألف نسمة ، فرأى بثاقب فكره أن يعمل أولاً على عرقلة تموين المدينة بطريقة فنية بحيث لا تؤدي إلى إحداث مجاعة .

وباتخاذ كونديه هذه الخطة والشروع في تنفيذها نشبت الحرب الأهلية التي أطلق عليها معاصروها اسم « حرب الفروند » (نسبة إلى لعبة تشبه المجداف) وعلى المشتركين فيها اسم « لاعبي الفروند » (١٦٤٨ — ١٦٤٩) ، ومن ذلك الوقت استعملت هذه العبارة في اللغة

الفرنسية للتعبير عن الشخص الكثير الانتقاد لكل شيء انتقاداً غريباً
لا يستند إلى منطق أو رأي معقول .



ثورة الحرب الأهلية (الفروند)

نجح البرلمان في إثارة حماس الباريسيين ضد الأسيرة المالكة ،
وأخذ يعد مواقع الدفاع والهجوم ، فوزع قوات الميليشيا الجديدة من
فرسان ومشاة على كل أبواب المدينة وميادينها ، ثم قامت مناقشات
بين قوائمه وقوات كوندية النظامية .

ولما كان «جوندى دى ريتز» يتوقع أن يخلف عمه فى منصب رئيس أساقفة باريس ، لأنه كان يحمل لقب رئيس أساقفة «كورنت» ، فقد أُلِف على حسابه الخاص فرقة من المحاربين مكونة من خمسة بلوكات بإعادة أطلق عليها اسم فرقة «كورنت» ، وكان يسير بكل زهو ونفخار على رأس هذه الفرقة فى الشوارع ، وقد خلع ملابس الكهنوت وارتدى الملابس العلمانية (المدنية) وتسليح بطنجة وخنجر ولم تستطع هذه الفرقة أن تتعدى ضاحية «بورلارين» (من ضواحي باريس الصغيرة) .

وعقد «البورجوا» وأصحاب الأعمال والمتاجر اجتماعات عديدة فى مقاهيهم وأنديتهم قرروا فيها الانضمام إلى الثوار . فتسلحوا بالبنادق والطبشات وحملوا الدروع ووضعوا الخوذات على رؤوسهم واستعدوا للقتال فى المواقع التى عينت لهم فى ضاحيتى فانسين وشارنتون ولكنهم عندما اصطدموا بالقوات النظامية التى يقودها كونديه ، هزموا هزيمة شنيعة فولوا الأدبار وتشتت شملهم ، كما هزمت قوات الميليشيا هزائم مشينة وبقي لواء النصر معقودا دائما لجنود كوندية بالرغم من قلة عددهم

لما توالى هذه الهزائم ضج البرلمان من مطالب قوادقوات الميليشيا التابعة له مع ثبوت ضعفهم وعجزهم فى القتال وهزائم الظاهرة كما أن الشعب لم ير أية فائدة من دفع ضرائب ومبالغ طائلة للاستمرار فى الثورة ، تزيد كثيرا عن الضرائب التى طلبها مجلس الوصاية والتى

أدت المعارضة فيها إلى هذه الحالة الاليمية ، كما أنه توقع أن يطالب بدفعها مرة بل مرات أخرى ، ولهذا جاهر بالشكوى وإظهار الندم .
وفي هذه الفترة قدم سفير أسبانيا للمفاوضة ، فاستقبله أعضاء البرلمان والقواد وبدأت المفاوضات في الحال ، وفي أثناء ذلك أعلن البطل تورين ، انضمامه إلى الثوار وأنه ينوب عنهم في المفاوضات ، واغتبط « جوندى دى ريتز » من هذه المفاجأة بالرغم من هزائمه المتوالية المنكرة . واعتبر تصريح تورين انتصاراً لحركة الفروند .

لم تسفر المفاوضات عن نتائج معينة كما أن انتصار « حركة الفروند » لم يستمر طويلاً ، لأن أعضاء البرلمان رأوا هزائم قواتهم في كل ميدان فتأكدوا من الفشل المحتوم ، ولم يروا أية فائدة من الاستمرار في العصيان والتمرد ، واقتنعوا أنهم بعمالهم هذا يرتكبون جريمة الخيانة العظمى للوطن . وإن هذه التهمة ثابتة عليهم بلا شك ، كما أن جنود تورين رفضوا إطاعته وتمردوا وأبوا أن يتبعوه ، كما كانت معاهدة وستفاليا قد عقدت وهي تحمل في بنودها امتيازات عظيمة لفرنسا التي لم يعد يبق أمامها من أعداء سوى أسبانيا .

كان من نتيجة هذه الظروف والعوامل أن أصدر ماتيو موليه رئيس البرلمان في ٣ مارس ١٦٤٦ بياناً أملاه بعد النظر وقوة الرأي . استعرض فيه الحالة وختمه بوجوب عقد الصلح مع الأسرة المالكة .

وقد تم هذا الصلح في « رويل » ، وبمقتضاه عادت الأسرة المالكة إلى باريس في ١٨ أغسطس سنة ١٦٤٩

استقبل الشعب الملك والمملكة الوصية استقبالا حماسيا حارا ، ودعت بلدية باريس الأسرة المالكة والحاشية إلى وليمة كبيرة ، دعت إليها أيضا مازاران . وفي أثناء الحفلة تصافت القلوب فاغبط الجميع وعم السرور والمرح ، وحظى مازاران باحترام الأعضاء وتكريمهم ، وبذلك هدأت النفوس وصفا الجو .

رحلت الفرق الملكية لمحاربة الأسبان الذين استغلوا فرصة الفوضى والاضطراب فتقدموا إلى « بيكارديا » ، وانضم تورين جيرا إلى صفوف الأعداء ، ولم يستأنف « كوندية » مهام القيادة فقد شجر خلاف بينه وبين مازاران ، فانشأ لمعارضته حزبا جديدا باسم « السادة الضعفاء » ، وقبض على كوندية ولكن أفرج عنه بعد قليل .

لم تقض حرب « الفروند » على العقبات المالية ، فاستأنف البرلمان معارضته للضرائب بكل عناد ، فعلق على الجدران نشرات ضد الكردينال مازاران .

وفي ذلك الوقت ثارت مقاطعات كثيرة منها مقاطعة جويبين وفيها مدينة بوردو العظيمة ، فرحل إليها الملك مع جنوده لإخماد الثورة وقاتمت حرب أهلية جديدة ، وما يجدر ذكره أن لويس الرابع عشر

حمل السلاح لأول مرة في حصار بيلجارد وعود في سن الثانية عشرة ، وأظهر شجاعة فائقة . واستمرت الحرب شهورا بين أخذ ورد ، فكانت المدن تسقط ثم تسترد . وبعد انتهاء كل حملة كان البلاط يعود إلى باريس حيث كان يشعر بأن الخطر يدنو رويدا رويدا . وهذه الحرب الأهلية الثانية التي تسمى « فروند الأمراء » كانت تدل ظواهرها على أنها ستكون أكثر شدة وخطورة من سابقتها التي سميت « الفروند البرلمانية » .

وسعى مازاران إلى تهدئة الخواطر ففرض على نفسه النفي الاختياري . واختار لمنفاه مدينة « بروهل » على الراين بالقرب من كولونيا وإنما كان هذا النفي بلا جدوى ، فقد أصبح كونديه ثائرا علنيا وانضم إلى الأسبان ، وهكذا اتسعت الحرب الأهلية الثانية .

وفي إحدى ليالي شهر فبراير سنة ١٦٥١ هجم الغوغاء على القصر الملكي وتغلبوا على الحراس وحطموا الأبواب واقتحموا القصر . وجاء في أثرهم جنود المليشيا ليثأ كدوا من وجود الملك لأنه أشيع أن الملكة تريد تهريبه إلى مكان أمين ، فكان لزاما على آن دوتريش أن تسمح لهؤلاء الجنود المسلحين بالدخول في غرفة الملك الخاصة وكان يغط في نومه فاستيقظ على الجلبة والضجة ، ولما رأى ما يجري حوله أبدى شجاعة وحكمة وحس . تصرف جدير بكل إعجاب ، لاسيما وأنه كان في الثالثة عشرة من عمره .

ورأت الملكة بين زعماء الغوغاء رجلا يدعى دي لورييه ، كان

يعمل خادما لكبير طهارة القصر الملكي ، فاستدعته ولاطفته وأكرمه وأجلسته لأنها لمحت في عينيه نية الشر والأذى فعمدت إلى هذه الوسيلة لكي يعدل عن نياته ، وبالفعل نسي هذا الرجل ما جاء من أجله وساعد بكل قواه على إخماد الثورة وتهديم المتذمرين والمتمردين ، وإنما فرضت رقابة شديدة على الملكة فأصبحت سجيناً في القصر الملكي ، ولم يفكر الثوار في مهاجمة القصر مرة أخرى .

وفي ٥ سبتمبر سنة ١٦٥١ ، أعلن أن الملك بلغ سن الرشد ، وبعد يومين توجه في موكب عظيم إلى البرلمان حيث قدم له الأمراء والأعضاء خضوعهم وولائهم ، وفي الذهاب والعودة كان حرسه موضع إعجاب وهتاف الباريسيين وعمت الأفراح كل مكان ، وكان النيدز يجري يجري الماء في النافورات العامة .

وبعد أيام رحل الملك والحاشية إلى «بيرى» لإخماد ثورة المقاطعات التي ضربها كونديه وأعوانه .

وفي نفس الوقت هزم تورين على يد الماريشال هوكنكور ، فجاء إلى باريس يعلن خضوعه واستسلامه للملك ، وفي الفترة ذاتها أنشأ مازاران على نفقته الخاصة جيشاً صغيراً أرسله إلى الملكة .

وأما الحالة العامة وكانت تتلخص في أن باريس بقيت محايدة وأن أفراد طبقة «البورجوازي» وضعوا شارة الحرب لا عن إيمان بعدالتها أو اقتناع بفكرتها وإنما عن خوف ، وظلوا في قرارة نفوسهم على أتم ولاء للملك ، كما أنهم لم يكنوا أي حب أو تقدير «لكونديه» .

الذى استنجد بالأسبان ، وأن البرلمان مع زهوه بقيامه بدور سياسى جديد كان أقل الهيئات اطمئنانا وثقة . وأن دوق أورليان (عم الملك) كان بالاسم سيد الموقف وعلى ذلك كان يدعى المرض عند ما يتطلب الأمر اتخاذ قرار حاسم فى مسألة ما .

• • •

استمرت الحرب بين جيش الملك وجيش الأمراء ، ولا داعى هنا لذكر تفصيلاتها ووقائعها ، على أننا نذكر إن أهم معارك هذه الحرب كانت معركة « بلينيو » التى استمرت يومين ولم تنته إلى نتيجة حاسمة لأن كونديه ترك ميدان القتال وتقهقر إلى باريس فتبعه تورين .

وفى أثناء هذا الصراع قام البرلمان والبلاط وبلدية باريس والأمراء وجوندى دى ريتنر الذى أصبح كردينال ريتنر ومازاران بمفاوضات مع بعضهم بعضا . وتوسط فى الموضوع مئات من الشخصيات البارزة لوضع حد لهذه الحالة المحزنة حقا . ولكن لم تسفر المفاوضات عن حسم النزاع ولا عن اتخاذ أى قرار لأنها لم تكن قائمة على أسس متينة بل كانت تنطوى على كثير من الخداع والحيل المكشوفة والنيات السيئة .

وأخيرا وجد أن السبيل الوحيد إلى الصلح هو زواج لويس الرابع عشر والجراند مدموازيل ، بالرغم من أنها تكبره بإحدى عشرة سنة ، وقد لاقى هذا الاقتراح رضا واغتياب حزب الأمراء الذى كان لهذه الأميرة نفوذا كبيرا فيه ، واهتم مازاران

بتنفيذه نظراً لأن الاميرة كانت تمتلك ثروة طائلة وبدأت المفاوضات وتخللتها مكائد والأعيب ومساومات .

وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تقابل الجيشان في أول يولييه سنة ١٦٥٢ على أبواب باريس ، فأغلقت المدينة أبوابها في وجه الجيشين .

وفي ٢ يوليو تقدم كونديه حتى دكورلارين ، خارج الأبواب ، ووصل جيشه إلى ضاحية سانت انطوان ودارت هناك معركة كبيرة هزم فيها الماريشال دي لا فيرتيه مساعد تورين جيش الأمراء الذي وجد نفسه محصوراً بين جيش الملك وأبواب باريس ، وظل باب سانت انطوان الذي يحمي الباستيل مغلقاً .

وعمدت الفرق الملكية إلى تقطيع أوصال جيش الأمراء حتى يلقى الهزيمة المحتومة ، ولكن حدث فجأة أن أخذت المدافع تطلق نيرانها من أبراج الباستيل على جيش الملك ، وفي نفس الوقت فتح باب سانت انطوان بأعجوبة أو بقوة سحرية ، فاستطاع جنود جيش الأمراء أن يقتحموه ويفروا من مهاجمهم ، ولما تم ذلك أغلق الباب خلفهم .

وكانت دالجراند مدموازيل ، هي التي نظمت هذا العمل الجريء وهي التي أشرفت على إطلاق المدافع ووجهت جنودها إلى موضع التصويب ، وكان من نتيجة هذه المفاجأة أن توقف جيش الملك ، كما قطعت نهائياً المفاوضات بشأن زواجها من الملك .

وهكذا استطاع كوندية أن ينقذ فرقه كما أنقذ نفسه ولكنه لم يغتر طويلا بنجاحه في غزو باريس ، ذلك لأن هذا الغزو الذي قام به جنود معظمهم من الأجانب ، أثار سخط وحنق السكان ، وأدى إلى ذعر وفزع البرلمان فحدثت قلاقل واضطرابات ذبح فيها عدد كبير من أعضاء البلدية . وأحرقت دارها واضطر كوندية إلى الالتجاء إلى معسكر الأسبان في الأراضي الواطئة .

وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٦٥٢ دخل الملك بحراسة تورين إلى عاصمة بلاده وسط هتاف يشق عنان السماء . وبذلك قضى على هذه الحرب الأهلية .

الباب الثالث

نضوج وعى الملك وحبه الاول

في ٧ يونية سنة ١٦٥٤ احتفل في كاتدرائية ريمس الكبرى، المشيدة على الطراز القوطي، بتقديس لويس الرابع عشر طبقا للطقوس والتقاليد التي سار عليها ملوك فرنسا منذ عهد لويس السابع، فرددت القباب القوطية اليمين الذي حلفه الملك أمام رجال الدين ورجال الدولة وتمثلت في هذا الاحتفال الديني الكبير ظاهرتان تدلان على أن آثار الحرب الأهلية لا تزال باقية. فإنه لم يحضر من أمراء الأسرة المالكة إلا شقيق الملك، دوق أنجو، لأن الباقين كانوا مابين ثائر ومغضوب عليه. كما أن الأسرة الملكية كانت في حالة عسر مالي شديد إلى درجة أنه لم يمكن شراء خاتم جميل للملك يتولى رئيس أساقفة الكاتدرائية وضعه في بنصر اليد اليسرى كرمز لزواجه بفرنسا وفقا للتقاليد المرعية، فأعارته الملكة خاتما يناسب المقام من الخواتم التي آلت إليها عن طريق الميراث الخاص.

وبعد أيام رحل الملك إلى ميدان الحرب المستعرة الأوار بين فرنسا وأسبانيا، ولقد أثار حضوره حماس الجنود فاستماتوا في القتال

تحت قيادة د تورين ، حتى استطاعوا رفع الحصار عن مدينة أراس
فهنا الملك قائده على ما بذل من جهد توج بالنصر .

لم يكن الملك مهتما بشئون الجيش فحسب ، بل بكل أمور الدولة
لأنه كان يريد أن يعرف ويدرس ويتعلم كل شيء فيها ، ليكون خبيراً
وملماً بأمورها وكان يريد أن يتعلم مهنة الملك وأن يتقنها تمام
الإتقان وأن يتفوق فيها على كل الملوك السابقين فأتخذه مازاران ،
معلماً له لما أمتاز به من خبرة ودقة ومقدرة في تصريف الأمور .

وكان د مازاران ، معلماً مخلصاً ، وفياً ، محباً لتلميذه الذكي المحب
للاستطلاع ، المجد في عمله ، الراغب في العلم بكل ما يخص مهنته ،
والذي أصبح يستطيع أن يقدر الأمور ويحسن التصرف ، ومع هذا
فكثيراً ما كان يترك الملك لوزيره وأستاذه د مازاران ، الحبل على
الغارب فيعمل بكل حرية ، وإنما لم يكن ذلك عن كسل أو تراخ أو
ضعف لأنه لم يتردد إطلاقاً في التدخل عندما كان الحال يتطلب ذلك
لوضع الأمور في نصابها ، فإنه لما اشتدت المعارضة البرلمانية ، رأى
أن يقضى عليها فدخل إلى قاعة الاجتماع وهو بملابس الصيد وأملى
إرادته ، ومن ذلك اليوم أدرك الجميع أن وعى الملك قد نضج .

وأخذت أيام الضنك والعسر المالي في الزوال ، وبدأت حياة
الرخاء تسير في مجراها الطبيعي ، كما أخذت الأسرة المالكة تستعيد عهد
الحفلات والمرح واللهو بعد أن أصلحت قصور اللوفر وفونتينيلو
وسان جرمان وأعدتها بأفخر الأثاث والرياش ، فكانت أينما انتقلت
ينتقل معها هذا الجو المرح الساهر بموسيقاه ومسرحياته ورقصه وطربه .

كما كان الكردينال مازاران يقيم في قصره المنيف حفلات رائعة يدعو إليها الأسرة المالكة والأمراء والعظماء فينعمون بكل ما تحوى من مرح وذوق وأناقة وإبداع وفتنة ، كانت حفلات زخرت بوصفها كتب ومؤلفات بشئى اللغات .

كان يتردد على حفلات مازاران بنات أخته الخمس ، الآنسات مانشبنى ، كن خمس فتيات رائعات ، ناضرات ، اكتملت أنوثتهن وفتنتهن ، وكن يشعرن فى بادىء الأمر أنهن غريبات عن هذا الوسط ، ولكن سرعان ما زال عنهن هذا الشعور ، لأن جمالهن الساحر ، وبراءهن الوفير ، وقرابتهن للكردينال جعلتهن موضع الحفاوة والتكريم من جميع المدعوين .

تزوجت كبراهن « لور » من الدوق ميركور ، كما تزوجت الثانية بأمر من بيت ساقوى هو الكونت دى سواسون ، وبقيت الثلاث الأخريات تجذبن بابتسامتهن الساحرة انظار الراغبين فى الزواج . على أن الثالثة « مارى » كانت تبدو غريبة عن باقى أخواتها ، كان يلوح أنها ليست من بنات هذه الأسرة الممتازة ، فلقد كانت أقل أخواتها جمالا وفتنة فكن يزجرنها ولا يهتمن بها ، كما كانت أمها لا تعطف عليها ، ولا تدللها كما تعطف وتدلل بناتها الأربع ، وكانت تقول لها إنه الأجدر بها أن تقيم فى الدير ، ولكن مارى مانشبنى لم ترد أن تدخل الدير ، حيث العزلة والتقشف ، لأنها تحب الحياة حيث المرح والنعيم .

ولقد تأثرت نفسية هذه الفتاة من تأنيب أمها لها ، ومن تهكم وسخرية اخواتها وتعمدن النيل منها أمام الناس كما لو أنها ارتكبت جرما وإثما ، فنشأت فيها عقدة النقص فأصبحت تعتقد أنه ليس من المناسب لها أن تذهب مثلهن إلى الحفلات ، أو أن تشترك في الرقص ، وزاد في تأثير هذه العقدة النفسية ما كانت تراه من إحجام الرجال عن دعوتها إلى مراقبتهم أو مشاركتهم اللعب والحديث ، فكانت إذا ذهبت إلى حفلة من حفلات الأسرة المالكة أو من حفلات خالها الكردينال لكي تسرى عن نفسها ، تمضي الوقت في البكاء والنحيب ، بين أروقة القصر وطرقاته ، في معزل عن الجليلة والمرح .

كان الملك يلقاها وهي على هذه الحالة ، فيتألم من دموعها المنهمرة على خديها ، فيمسحها بابتسامته الخلابه ، فتبتسم له شاكرة عطفه ، مقدرة جميله ، وبقدرة ساحر ماهر تغيرت حالة الفتاة ، وتخلصت من عقدها النفسية ، فزال الحزن وذهب الامل ، وجفت الدموع ، وحل محلها الفرح ، والامل ، والابتسام المشرق ، ولم تعد تخشى الظهور في الحفلات والاشتراك في الرقص ، ولم تعد تأبه لتهكم شقيقاتها ومقت أمها لها . لقد أخذها الملك إلى حلبة الرقص ، ورقص معها بين دهشة المدعوات وحسد وغيره الشقيقات ، وبعد ذلك أخذ كل واحد يتفانى في إكرامها وملاطفتها يحدوه الامل أن تسمح له بمراقبتها ولو مرة واحدة ، وهكذا انتهى عهد السخرية والازدراء ، وجاء عهد السعادة والهناء ، وللسعادة سحرها وتأثيرها

فى النفس ، فبذت الفتاة جميلة ، حتى طغت على جميع المدعوات .
ومال الملك إلى هذه الفتاة ، فكانا يخرجان معا للتريض فى حدائق
فورتينيلو ، وغاب بولونيا ، ويتحدثان ويسمران ، وكانا يذهبان
معا للصيد .

وذات يوم بينما كانا يطالعان معا كتابا للشاعر الإيطالى د بترارك ،
نظر الملك إلى مارى مانشينى وقال لها :
هل يروق لك أن تصبحى منك فرنسا .

امقد لسان الفتة عن الإجابة ، فعبرت نظراتها عما يخالج قلبها ،
إنها بلا شك كانت تمنى هذه الأمنية العزيزة المنال من صميم قلبها .
وأخذت تتخيل نفسها وهى مربعة على عرش فرنسا بعد أن كانت
فتاة إيطالية خاملة لا تجد عطفاً من أحد . حتى من أمها وأخواتها ، إنها
الآن تزهر بهذا الأمل ، ستكون ملكة ! وستكون شقيقاتها المتعجرات
من رعاياها !

ووقفت الملكة الوالدة آن دوريش على مشروعات ابنها الملك ،
مغضبت أشد الغضب واحتدت على الكردينال مازاران ووجهت إليه
كل اللوم والتأنيب لأنه لم يعمل على منع ابنة شقيقته من الاتصال
بالمملك ولم يعترض على تصرفاتها ، وصرحت بأنها ان توافق على هذا
الزواج ، وقالت للكردينال : إذا ما أصر الملك على ذلك فإني أنذرك
بأن فرنسا كلها ستثور عليك وعليه ، وأنا نفسى سأكون على رأس
الثوار وأضم اليهم ابني الثانى دوق انجو .

لم يأبه الملك لما حدث بين الملكة ومازاران فتركهما وشأنهما
وذهب إلى ميدان القتال في ساحة دانكرك بين الجيوش الفرنسية
والاسبانية حيث لاقت الجيوش الفرنسية بقيادة تورين جيوش
الاعداء بقيادة كوندية ودارت على التلال المحيطة بالمدينة معركة
رهيبة انتصر فيها جيش تورين انتصارا ساحقا ، وأخذ بطارد الاعداء



ماري مانشيني

بلا هوادة حتى كاد يوقع به نكبة مروعة لولا أن حدث حادث
فجائي أزعج فرنسا كلها فتوقفت الجيوش الفرنسية عن المطاردة والقتال

انتظارا لنتيجة هذا الحادث وهو أن لويس الرابع عشر. أصيب بحمى شديدة وساءت حالته الصحية بسرعة حتى أصبحت تتدر بالخطر فقلق الشعب على مليكه المحبوب وتوقف عن العمل ولم يعد يهتم إلا بحالة الملك . وأقيمت الصلوات في المعابد والكنائس في كل أنحاء فرنسا من أجل شفاء الملك ، الذي كان الناس في أشد حاجة إليه ، لمواهبه ونشاطه ، ويعلقون عليه كل آمالهم في إصلاح الأحوال الداخلية وتوطيد السلام وإنهاض الشعب ورفعة الوطن .

لم ينقطع الملك أثناء مرضه عن الكتابة إلى ماري مانشيني ، وكانت رسائله إليها تعبيراً صادقا لشعوره نحوها ، فتقرأها بفيض من الألم والأمل ، الألم لمرضه والأمل بإبلاؤه ، وتمضي كل وقتها في الصلاة والابتهاال إلى الله أن يمن عليه بالشفاء العاجل ، فلما أبل الملك من مرضه أسرع إلى لقاءها . ولما عرف بحالتها أثناء مرضه ووقف على إخلاصها له ازداد حبه وتقديره وإخلاصه لها . على أن الفتاة لم تكن تخفى رسائل الملك إليها في مكان أمين ، فاستطاع أعوان الملكة أن يعرفوا كل ما فيها .

لما عادت الأسرة المالكة إلى اللوفر فكرت جديا في ضرورة زواج الملك . وكانت الملكة تتحدث طويلا عن مازاران في هذا الموضوع الهام ، وكانا في حديثهما الطويل الذي يستمر أحيانا إلى وقت متأخر من الليل يستعرضان كل الأوجه لحل هذا الموضوع ويستعرضان الأميرات المعروفات الجديرات بالزواج من ملك شاب عظيم .

وقد عرضا أولا الأميرة هنرييت الإنجليزية ابنة شارل ستيوارت
الذى كان ملكا لانجلترا وثار عليه الشعب وقطع رأسه ، فليجأت هذه
الأميرة إلى باريس حيث عاشت فى فقر وعوز حتى إنها كانت لا
تستطيع الحصول على قليل من الفصح للتدفئة ، وكانت ترتدى ملابس
أمها البالية التى باعت كل ما تمتلك لإنقاذ زوجها . وبعد البحث
وجد أن زواج لويس الرابع عشر بهذه الأميرة قد يؤدى إلى
تعزيز صفو العلاقات بين فرنسا وانجلترا ، التى كان يتولى شئونها فى
ذلك الوقت الوزير كرومويل ، وبحكمها حكما استبدادياً بعد أن جمع
فى يده كل سلطات ونفوذ ملك لا ينقصه إلا التاج ، فلم يكن هناك داع
والحالة هذه إلى خلق أعداء آخرين .

وانتقل التفكير بعد ذلك إلى ابنة دوق ساقوى وحفيدة هنرى
الرابع . واستمرت المشاورة مدة أخرى حول المزايا التى تحصل
عليها فرنسا من ارتباط الأسرة المالكة ببيت ساقوى ، ولكن لما
وجد أنه لا يترتب على المصاهرة بهذا البيت نتائج قيمة تقرر صرف
النظر عن الزواج من هذه الأميرة .

وبعد ذلك دار البحث حول الأميرة الأسبانية مارى تيريز ابنة
ملك أسبانيا ، لأنه كان من المتوقع أن ترث عرش أسبانيا فى وقت ما
لأن أبائها كان مريضاً كما أن أخاها الصغير كان مريضاً كذلك بل
وعلى حافة الموت ، وحتى إذا لم تستطع أن تنال حقها فى عرش أسبانيا
فى حالة زواجها من ملك فرنسا ، فإن هذا الزواج لا يحرمها من حقوقها

باعتبارها من آل دوتريش فترث أملاكا كبيرة . وبذلك يسهل إعادة إنشاء إمبراطورية شارلكان العظيمة وهي الإمبراطورية التي لا تغرب الشمس عن أملاكها لأن أسبانيا كانت تملك مستعمرات شاسعة غنية .

وبينما كانت الملكة تمشي كل وقتها مع مازاران في بحث هذا الموضوع الحيوى الذى أصبح شغلا شاغلا . كان الملك لا يفكر إلا فى ماري مانشيني ، كنانا بمرحان معا ، وكان يقرأ لها الأشعار الإيطالية التي تحبها ليرهن لها على حبه وكانت هي تقرأ له أشعار الشاعر الفرنسي كورنى أو تغنى له أغاني بلادها الجميلة ، كانا لا يعبان بشيء ، فيمضيان النهار فى اللهو والتزه فى فونتنبلو ، والليل فى الرقص فى اللوفر . وكان الملك أثناء ذلك ينادى ماري بكلمة مليكتي .

لما استقر رأى الملكة ومازاران على اختيار ابنة ملك أسبانيا ، أرسل مازاران إلى أسبانيا مبعوثا خاصا اسمه دليون ، وزوده بتعليماته ، ورحل المبعوث باسم مستعار وكان عليه أن يدرس الطريقة التي تؤدي إلى السلام بين الدولتين ولكنه فشل فى مهمته لأنه وجد أن السلام لا يمكن أن يتوطد إلا بعد مناقشات ومفاوضات ، حتى إنه لما أشار للوزير الأسباني الدوق دى هارو إلى صورة الأميرة المعلقة فى قاعة الاجتماع قائلا إن صاحبة هذه الصورة تستطيع أن تصالح أمورا كثيرة ، لم يحب الوزير الأسباني بشيء ما ، وكل ما حدث أنه فى اليوم التالى لم يجد المبعوث الفرنسي صورة الأميرة فى مكانها .

ولما عاد مندوب مازاران إلى فرنسا واطلع ملكتها على نتائج مهمته . استشاطت غضبا وقالت : سأعرف كيف أحمل شقيقى على الإفصاح عن رأيه .

ولجأت إلى حيلة بارعة وهى دعوة ابنة دوق سافوى إلى الحضور إلى ليون ، وانتقال الأسرة المالكة إلى مقابلتها فى هذه المدينة فيشير انتقالها بضول ملك أسبانيا ويعمل على معرفة بواعث الانتقال حتى إذا ما عرف الدافع ، وكانت له الرغبة فى أن تتزوج ابنته من ملك فرنسا لتوطيد السلام بين الدولتين سارع إلى إرسال رسول خاص إلى ملكة فرنسا ومعه كتاب الموافقة .

وتمت الترتيبات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع ، ورحلت الأسرة المالكة ومعهما ماري مانشيني فى موكب حافل إلى ليون .

كان الطريق برغم وعورته قصيرا بديعا أمامهما ، وما أن ابتعدا عن باريس حتى نزلا عن العربات وركبا الجياد وأخذا يركضان بكل حرية .

قال الملك لماري : ملكتى لاتزجى ، إن هذا الزواج لن يتم . واستمر طول الرحلة يتحدثها عن آماله ومشروعاته وأسرار الدولة لكي يسرى عنها ويدخل فى روعها أنه وفى للعهد ، مخلص لها .

وكلما اقترب الموكب من مدينة ، كان الملك يسرع بالركوب فى العربة بجانب أمه ، ويستعد لسماع خطب وكلمات رجال الدين والمديرين

وأعضاء الهيئة النيابية ويتسلم منهم فى نهاية حفلة الترحيب والتكريم
المفاتيح الرمزية للمدينة .

استمر الحال على هذا المنوال حتى مدينة ليون، التى استعدت لاستقبال
الأسرة المالكة أجمل استعداد ، فدخلتها فى موكب رائع زاخر وأقامت
فيها حتى وصل موكب آل سافوى فاستقبلته بكل ترحاب بين حماس
شعبي منقطع النظير .

وأقيمت حفلة راقصة رقص فيها الملك مع أميرة سافوى المرشحة
لزوجته تكريما لها . وكان منسرجا ، بادی السرور والمرح بما أثار حتى
مارى مانشيني ولكن طمأنها وأفهمها أنه فعل ذلك من قبيل الواجب
ومراعاة الشعور .

فى أثناء الحفلة وصل رجل أجنبي مغبر الوجه من وعشاء السفر ،
يذل منظره على أنه قادم من جهة بعيدة ، وطالب محادثة الكردينال
مازاران شخصيا لأمر هام .

استقبله فى بادی . الأمر كولبير سكرتير مازاران، وحاول أن يعرف
منه الغرض من المقابلة ، ولكن رفض أن يدلى بشيء وأصر على مقابلة
مازاران فى الحال ؛ فاضطر كولبير إلى أن يدخله إلى سيده ، وبعد
حديث قصير عاد الكردينال إلى القاعة الكبرى حيث كانت الموسيقى
تصدح والمدعوون يرقصون ويطربون ، واقترب من الملكة وقال لها :
وصلنى الآن خبر هام أحب أن أطلع جلالتك عليه ، يتضمن
أمرا لم يكن يخطر ببال مولاتى .

قالت الملكة : هل بعث أخى الملك بالأميرة ابنته .

أجاب الكردينال : نعم . مولائى .

وسلمها رسالة من ملك أسبانيا يتمنى فيها السلام ويوافق على زواج ابنته من لويس الرابع عشر ملك فرنسا لتوطيد العلاقات بين الدولتين . وبذلك فشل مشروع الزواج بأميرة ساقوى أو بمعنى أوضح نجحت حيلة ملكة فرنسا .

وعادت الأميرة المالكة إلى باريس بكل سرعة ، وكانت ماري مانشيى فى غاية السرور ، لأنها لم تعلم بما حدث فاعتقدت أنه وقع الاختيار عليها نهائيا ، وفى الطريق كانت تشاكس الملك بقولها : ألا تحجل من الزواج بأميرة دميمة .

والواقع أن أميرة ساقوى لم تكن دميمة ، إلا أن ماري مانشيى كانت تصفها بالدمامة بدافع الغيرة . وهكذا انتصرت ، ولكن انتصارها كان قصير الأجل .

وفى باريس بدأت مفاوضات الزواج ، وأخبرت الملكة ابنتها صراحة بأن عهد الحب قد انتهى وأن عليه أن يفكر جديا فى الزواج من الأميرة الأسبانية ، وأن المسألة لم تعد مهزلة كما حدث من قبل بل أمرا واقعا لابد من تنفيذه لصالح الدولة ، لأن عليه يتوقف السلام فى أوروبا .

احتد لويس الرابع عشر عند سماعه هذا القول ، وغضب غضبا شديدا ولكنه وجد أمامه ارادة لاتلين ، فاشتد تأثره حتى بكى بكاء

مرا وتوسل إلى الكردينال ورجاه أن يدعه وشأنه ولكن الملكة كانت قد عقدت النية على إتمام هذا الزواج ، فلم تقبل أى كلمة ، وكانت عفيفة متمسكة برأيها .

وعلم الشعب الفرنسي أن السلام يتوقف على زواج الملك بابنة ملك أسبانيا وأن المفاوضات دائرة لإتمام المشروع ، سر كل السرور وهرع إلى القصر الملكي يهتف من الأعماق للملك ، ذلك لأن الحرب كانت مستمرة لمدة خمس وعشرين سنة . تحمل الشعب نكبات وخسائر مروعة واستولى عليه اليأس والقنوط ولم يعد يأمل في السلام ، فلا غرو إذا غمره الفرح واهتف من كل قلبه إلى مليكه بمثابة توسل إليه أن يقبل هذا الزواج لأن فيه خير الوطن .

وكان الملك إذا خرج مع الكردينال إلى شوارع باريس يستقبلهما الناس بهتافات مدوية ، وكانت ماري تبكي آخر بكاء عند سماعها هتاف الشعب الذى يملئ رغبته على لويس

وأخيرا رضى الملك وقبل الزواج ، ففي صباح يوم صاف ، اصطفت عدة عربات فى فناء قصر اللوفر ركبت فيها بعض السيدات والآلات مانشينى ومريمتن مدام دى فينيل لتعلمن إلى لاروشيل .

وبينما كانت العربات على وشك المسير أقبل شاب عارى الرأس وأسرع إلى باب العربى الأولى ، كان هذا الشاب ملك فرنسا ، تحدث طويلا مع احدى راكبات العربى ثم انحى أمامها وبكى متأثرا كانت كلمات وداع ماري مانشينى له هى :

مولاي ، انت الملك ، انت تبكي وأنا ارحل ..
وسارت العربة ، وارتمت ماري مانشيني على مقعدها خائفة القوى .

كانت المفاوضات بين مازاران وبين الدون لويس دي هارو
الوزير الأسباني طويلة ومعقدة ودقيقة للغاية . كان لزاما على
الكردينال أن يتوصل بكل ما أوتي من لباقة ودهاء ومقدرة وإلمام
بالأمور الدبلوماسية لكي لا تفشل المفاوضات مع خصمه العنيد فكانت
كل مادة من مواد المفاوضة تتطلب مساومات ومناقشات لانهاية لها ،
وأخيرا أمكن الاتفاق على نصوص معاهدة السلام وعلى شروط
الزواج ، فكتب مازاران إلى البلاط أن ملك فرنسا يستطيع أن يسافر
إلى الحدود الأسبانية ليأخذ زوجته

ورحل الملك من باريس في موكب حافل ، وجهته مدينة سان جان
دي لوز . وعلى طول الطريق كان يقابل بهتاف يشق عنان السماء ، كان
الشعب يهتف ، السلام . السلام ، كما يهتف للملك والملكة ، إنه لا يحصل
على السلام فحسب بل على ملكة شابة . وكانت أجراس الكنائس
تدق دقات الفرح والسرور ، كما كان رجال الدين ينتظرون مرور
الملك ليباركوه .

في وسط هذا المرح الشامل ، كانت آن دو تریش مهمومة شاردة
الفكر ، كانت تفكر في أمر هام وهو أن الموكب سيمر بمدينة
لاروشيل وفيها ماري مانشيني التي لم ينقطع الملك عن الكتابة إليها
كما لم تنقطع هي عن التفكير في حلها الذهبي .

وقد حدث عندما وصل الموكب إلى مدينة سان چان دالنجيلي أن كانت الآنسات مانشيني في الانتظار لتحية الملكة ، وإنما أغرب ما حدث وأقلق بال الملكة آن دوتريش ان الملك سبق الموكب وقابل ماري مانشيني وتحدث معها حديثا طويلا .

لم تستطع الملكة أن تغير طريق الموكب ، ولا أن تمنع الملك من مقابلة ماري ، فخشيت أن يضيع كل ما بذلت من جهد ومشقة . على أن الملك مع ذلك ظهر بظهر ملك ، وحافظ على العهد الذي قطعه لأمه واتخذ مكانه بجانبها في العربة وقال لها : إلى بوردو إلى بوردو لقد استمع إلى صوت العقل وإلى صوت شعبه ، وكان هذان الصوتان أقوى من صوت قلبه .

لم تأت ماري مانشيني إلى بوردو ، فإن أحد فرسان الملك حمل إليها هدية ظريفة وهي كلبة الملك المدله « فرييون » التي شهدت ساعات السرور والحب ، ولقد دلت الكلبة بمداعبتها البريئة على الوداع النهائي .

الباب الرابع

زواج لتوطيد السلام

ذهب الدوق ، دوجرامون ، ماريشال فرنسا إلى أسبانيا ليقدم إلى ملكها في قصره في مدريد طلب زواج مولاه لويس الرابع عشر بالأميرة ابنته .

كان موكب هذا الدوق المكلف بمهمة رسمية من قبل ملك شاب على جانب عظيم من الأبهة والعظمة ففي الطليعة كان الأشراف يسرون يتبعهم الجنود المشاة والفرسان بقبعاتهم المزركشة ثم عربة السفير الأنيقة تجرها الجياد الأصيلة المطهمة ويحيط بها حرسه الخاص بملابس رائعة وخوذات وردية وخلفها أركان حربه .

كانت الوان الريش الزاهية على قبعات الأشراف والضباط وبريق الذهب والفضة والدانتلا والأشرطة التي تزين ملابسهم ، مما يهر الأبصار في هذا الموكب المرح المتبوجه بكل سرعة إلى قصر الملك .

ووقفت الأميرة الأسبانية خلف قضبان نافذتها الضيقة . لترى القادمين من الخارج لطلب يدها .

ولم يهتم السفير بمشاهدة الزينات والأعلام الجميلة المرفوعة على المنازل ، ولا بالنظر إلى نساء مدريد اللقاتات بشيلاهن الرائعة ، في النوافذ والشرقات يتطلعن إلى رسول السلام من أجل أميرتهن الحسناء ولما وصل الموكب إلى القصر الملكي نزل الماريشال من عربته فحياء رجال البلاط والحاشية بحفائهم المعهود وصبوه إلى داخل القصر يتقدمهم جنود الحرس من حملة الرماح ، حيث استقبلته الأسرة المالكة والحاشية وأهم ما لفت نظره سكون القوم وصمتهم . ولم يعجبه منظرهم فقد كان الرجال يرتدون ملابس سوداء في غاية البساطة وكانت السيدات أيضاً لبسن ثياباً سوداء بدون تطريز فكان أشبه بصناديق مغلقة من الصعب تمييز أشكالهن الحقيقية وكن يضعن على رؤوسهن خصلات من الشعر المستعار تغطيها شيلان من الدانتلا السوداء .

كان البون شامعاً بين وجوم الأسبانيين بملابس الحزن وبين مرح وحيوية الفرنسيين كما كان الظلام مخبياً داخل القصر في حين كانت الشمس ساطعة في الشوارع والميادين ، لأن نوافذ القصر صغيرة جداً عليها مشريبات من الخشب ، لندرة الزجاج في أسبانيا ، فكانت لذلك تحجب الأشعة الضوئية .

واختار مبهوث ملك فرنسا صالونات ودهاليز متعددة ، وكلها على سق واحد ، يسود فيها الصمت الرهيب والظلمة المقبضة وكأنها مقابر موحشة حتى وصل إلى القاعة الأخيرة ، حيث رأى الملك بملابس سوداء بسيطة جالسا بكل صمت وهدوء على أريكة بديعة .

والتي الدوق كلمة منمقة حوت كل أساليب البلاغة والبيان وكان ثابناً ساكتاً ، فلما تمت الخطبة أوماً الملك برأسه إعلاناً بانتهاء المقابلة . وبعد ذلك أدخل الدوق إلى صالون مجاور وجد فيه الأميرة ، وكانت في سن العشرين ، ذات وجه طويل ، وعينين زرقاوين ، وشعر مزين بخصلات تربطها أشرطة ملونة ، وانحنى أمامها الدوق بكل احترام وقبل طرف ثوبها ، وكأنما أصيب بعدوى الصمت فلم ينبت ببنت شفه .

كان الدوق أثناء إقامته في مدريد موضع حفاوة وتكريم ، حتى إنه دعى إلى العشاء مع الملكة التي اعتادت أن تتناول وجباتها بمفردها وهي جالسة بين سيدتين في ثياب بيضاء تتناولان الصحف من الخدم وتقدمانها إليهما ، وتنافس الأمراء والأشراف في إكرام الفرنسيين . وكانت أعظم المآدب التي أقيمت للاحتفاء بهم مأدبة الأميرال دى كاستيل حيث قدم لهم على المائدة أكثر من خمسمائة صنف من الطعام والشراب .

وبعد أيام أرسل إليهم الملك هداياه بمثابة انتهاء الزيارة الرسمية . فذهب إليه الدوق بنفس الطريقة التي قدم بها ليستأذن في العودة إلى وطنه ، فأعطاه رسالة إلى مليكه ، وكان الدوق يريد أن يحمل معه بعض كلمات من الأميرة الشابة فاستعان بكل ما أوتي من لباقة وذكاء حتى وفق إلى أن يظفر منها بهذه الكلمات : « قل للملكة ، سيدتي وعمتي ، إنني سأكون دائماً عند حسن ظنها » .

فلما رجع إلى فرنسا أطلع الملك على نتائج مهمته . وكانت تلخص في أن الزواج لا يمكن أن يتم في الحال لأن ملك أسبانيا يرغب في أن يرافق ابنته إلى حدود مملكته ليرى شقيقته ملكة فرنسا . وكان الوقت شتاء ، وفيه يتعذر القيام برحلة طويلة كهذه ، لأن الطرق تكون غير صالحة لموكب حافل .

فاقتنعت الأميرة المالكة الفرنسية بهذه النتائج ورأت أن تمضي فترة الانتظار في زيارة إقليم الجنوب الذي يرفرف على ربوعه السلام منذ عهد قريب . وبعد ذلك أخذت تستعد لاستقبال ملك أسبانيا وابنته ، وقررت بمناسبة انتهاء عهد القيود والحرمان أن تبالغ في العظمة والآهة للتأثير في الأسبان أعداء الأمس وحلفاء الغد ، فاستوردت أجود أنواع الأقمشة والحرير والأصواف والدانتلات وأعدت العدة لإصلاح قصر اللوفر وتنسيقه بأخضر الرياش والأثاث وأشرف الملك بنفسه على وضع الرسومات والتصميمات والنقوش كما عكفت الممكة على إعداد جهاز العروس بمعاونة كواشير ، وكان مازاران يبدى آراءه السديدة ويسدى نصائحه عن خبرة ودراية لكي يكون كل شيء أجمل مافي الوجود ، فقال للملك :

إذا لم يكن في خزينته مولاى ما يكفي من المال لسد النفقات اللازمة فليأخذ من أموال ما يشاء ، فإن كل ما أملك تحت تصرف الملك . وقد كانت هذه الكلمات من وزير مشهور بالبخل والتقتير موضع تأويلات وتعليقات طويلة .

ولما جاء اليوم المرتقب ، أقيم في جزيرة « فيزان » ، في وسط
« نهر البيداسو » ، الذي يفصل المملكتين ، مرادق كبير قسم إلى قسمين
بينهما قاعة مشتركة وضع في وسطها حاجز ومنع كل من الفريقين أن
يحتازله ، وفي هذا السرادق جرت المفاوضات .

تقابل الفرنسيون والأسبان في هذه المناسبة السعيدة بعد أن
كانوا منذ أسابيع قليلة يتقاتلون في حومة الوغى ، فأخذوا يتبادلون
نظرات الدهشة والتعجب .

لم يستطع الفرنسيون بملابسهم الزاهية من الحرير والقטיפه المطرزة
بالذهب والفضة أن يحافظوا على مظهر الجد والوقار أمام صلابه
رجال الحاشية الأسبان بملابسهم السوداء الخالية من الشرائط والريش ،
وأن كان بعضهم يزينون قبعاتهم بقطع من الماس النادر الثمين ،
على أنهم لم يخفوا اشمزازهم من ملابس الفرنسيين لا عتزازهم بملابسهم
السوداء الخشنه .

وبعد تبادل الخطب المعتادة ، دارت المفاوضات بين الطرفين ،
وانتهت دون مشقة إلى إبرام صاحب « برينيه » وبمقتضاه نالت فرنسا
إقليم « لورسيون » وبعض نقط حصينة على حدود الفلاندر على أن
تضيق حدودها في اللورين فتوطد السلام بين الدولتين .

وفي كنيسة « فوتنارابي » الأسبانية أقيم احتفال ديني كبير طبقا
للتقاليد الأسبانية السائدة في ذلك الوقت لزواج الأميرة بدون وجود
الزوج الأصلي بأن يمثله وكيله ، وقد اختير الدوق لوزدي هارو

الاسباني كتائب عن لويس الرابع عشر ، وبعد انتهاء هذه الطقوس الدينية ، توجهت الأميرة إلى السراشق المقام فى الجزيرة لتحية الملكة آن دوتريش عمها .



« مارى تريز دوتريش »

وبينما كانت الأسرتان تتحدثان ، سمع طرق على باب السراشق ، فأسرع رجال الحاشية لرؤية الطارق ، ولسكنهم ترجعوا باحترام ، لأنهم وجدوا أمامهم ملك فرنسا ، الذى جاء متكرراً ، ليرى لأول مرة هذه الأميرة التى أولته ثقته ومحبتها .

وسألت آن دوتريش زوجة ابنها ، ومن يكون هذا الغرب ؟ ولكن ملك أسبانيا قطب جبينه وأسرع بالإجابة بدلا عن ابنته وقال : « لم يحن الوقت بعد » .

وعمد شقيق لويس إلى إنقاذ الموقف فغير مجرى الحديث بأن قال الأميرة : « مارأيك أيتها الأخت المحترمة في هذا الباب . فابتسمت الأميرة . وأجابت : أراه رائعاً جميلاً .

وعلى أثر ذلك انسحب الطارق الغريب وافترقت الأسرتان . وأخيراً حل يوم تسليم الأميرة رسمياً إلى زوجها ، فلم يعمد الملك إلى التنكر هذه المرة ، بل ظهر في السرادق يحيط به الأمراء والحاشية وبدأ التعارف بين رجال الفريقين ، فلما قدم الماريشال دى تورين إلى ملك أسبانيا خرج عن صمته المألوف وقال : هذا رجل سبب لى متاعب وأشجان طويلة .

وكانت هذه اللفتة الملكية إلى خصم شجاع منتصر ، آخر كلمة للتذكير بالحرب الماضية .

وبعد أن تم التعارف ركع العاهلان أمام جانب من منضدة وضع عليها إنجيلان ، وأمسك كل منهما بالصليب . ثم تليت على مسامعهما نصوص معاهدة الصلح والتحالف بالفرنسية والأسبانية فأقسم الملكان على تنفيذ المعاهدة بكل أمانة وإخلاص .

واجتازت الأميرة الحدود ، وقبل أن تفرق الأسرتان حاولت ملكة فرنسا أن تعانق شقيقها ملك أسبانيا ولكنه لم ينحن أمامها . وكان الوداع مؤثراً مسيلاً للعبرات ، وبكت الأميرة طويلاً وهى تخلع ملابسها الأسبانية لتزين بالملابس التى أعدت لملكة فرنسا ، ثم أقيمت حفلة باهرة رائعة للاحتفال بالقران الحقيقى فى « سان جان دى لوز » .

اشترك فيها الأمراء والنبلاء والأشراف واصطففت الجنود الفرنسية بأزياء جديدة أنيقة ، أعدت لهذا الموكب على طول الطريق بين القصر والكنيسة وتكدست الجماهير لرؤية طلعة الملكين .

وفي المساء أنيرت المدينة كلها ، ووقف الملكان في شرفة القصر ، ونثرا على طوائف الشعب المجتمعة تهتف بحياتها قطعاً كثيرة من الذهب سكت خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة .

وشمل الفرح فرنسا كلها ، فقد حملت إليها الأميرة الأسبانية سابقاً وملكة فرنسا حالا أعظم ما تتمناه وهو السلام الذي كانت تتوق إليه منذ عهد طويل ، وبهذا الزواج تنازلت عن حقوقها في تاج أسبانيا لأنه نص في المعاهدة على ذلك مقابل دويطة كبيرة تدفع لها .

فلاغرو والحالة هذه إذا قرعت أجراس الكنائس في كل أنحاء البلاد للاحتفال بالسلام الذي وطدته أخيراً أميرة في سن العشرين .

الباب الخامس

الملك يملك ويحكم

« إن الملك العظيم يجب أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة »
« لويس الرابع عشر »

كان يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٦٦٠ ، أروع وأجمل يوم شهدته باريس في القرن السابع عشر كله ، فقد خرج جميع سكانها من شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، متجملين بأحسن ما عندهم من ملابس وجواهر وحلى لاستقبال طاعة الملوك الشاين بعد أن تم قرانهما . وقفت جموع الشعب الغفيرة وهي تغنى وتتشيد أناشيد المرح والغبطة على طول طريق الموكب الملكى الذى فاق فى التنظيم والإعداد مواكب الغزاة الظافرين والملوك المختصرين .

كان الحرس السويسرى يسير فى الطليعة يتبعه الحرس الفرنسى ، وكان الضباط والجنود يرتدون ملابسهم التقليدية الفاخرة المطرزة بالذهب والفضة ، ويضعون فوق رؤوسهم قبعات عالية مزركشة بالريش المتعدد الألوان ، فكانت مجموعة بديعة من أقواس قزح بألوانها الباهرة تتحرك على أنغام موسيقية شجية تأخذ بمجامع القلوب وجاء بعدهم آل الكردينال وجياده الاثنان والسبعون ، على ظهورها

برادع أرجوانية وملجمة بلجم من الفضة الخالصة ، ثم اتباعه وحاشيته ، وبعد ذلك مواكب الأمراء والنبل ، وكان موكب كل واحد منهم مؤلفا من اثنتي عشرة عربة فاخرة يجر كل واحدة ستة جياد مطهمة وحولها حرسه وحاشيته بأزياء رائعة تهر الألبصار ، ولم يشترك ما زاران بنفسه في هذا الموكب المرح لمرضه واكتفى بأن وقف في شرفة قصره يتفرج .

ولما مرت هذه المواكب البديعة جاء في أثرها موكب الملكة الوالدة آن دوريش ثم حاشية الملك والفرسان والأشراف وهي تتقدم عربة أنيقة تجرها ستة جياد قوية مزينة بأبدع زينة ، جلست فيها بكل عظمة وزهو ، ملكة فرنسا الشابة ، مرتدية ثوبا رائعا من القطيفة السوداء الموشاة بالذهب الخالص والمتألقة بالجواهر الجميلة النادرة ، وازدان شعرها الذهبي بسنابل من الذهب والماس ، وصارت محط أنظار جميع الناس ، وسعى كل واحد جهده لرؤيتها . وكان لويس الرابع عشر مرتديا حلة فاخرة مزدانة بأنفس الجواهر وأروعها . محتطيا صهوة جواد أشهب جميل ، يسير بجانب عربة الملكة .

ومر بعد ذلك رتل طويل من العربات وسط هتاف الشعب المدوي للملك والملكة . وكان هتافا يتم عن عظيم الإخلاص والوفاء والتقدير لذلك الشاب والملكة التي عدت حمالة السلام الوديعه .

راستمرت مواكب المرح أياما كان الشعب خلالها يذهب إلى

القصر الملكي ليرى الملكين ويهتف لهما ، فكانا يخرجان إلى الشرفة بمثابة تعبير عن شكرهما .

• • •

وبعد شهر كانت الأسرة المالكة مجتمعة في قصر قنسان القديم حيث كانت أعمال إصلاحه وتجديده قد توقفت لمرض الكردينال مازاران .

وبلغ مسامع الملكين أن الكردينال يوجد بأنفاسه الأخيرة فهرعوا إليه وألقيا عليه نظرتهما الأخيرة ، ولفظ الكردينال نفسه الأخير بحضور مولاه لويس الرابع عشر الذي تأثر تأثراً بالغاً لوفاة هذا الخادم الأمين ، ولم يستطع أن يحبس دموعه ، فأنحنى هو والمملكة أمام فراش المتوفى احتراماً له ، وكانت عيونهما مغروقة بالدموع .

كان مازاران قد أتم رسالته خير أداء ومضى في سلام بعد أن خدم طويلاً بكل إخلاص البلد الذي اتخذ موطناً له .

وبعد أن شيع مازاران إلى مثواه الأخير ، مثل الوزراء أمام الملك وسألوه قائلين :

إلى من يا صاحب الجلالة نرفع رسائلنا وتقاريرنا ؟

أجاب الملك بكل هدوء : ارفعوها إلى شخصياً

أحدثت هذه الإجابة كثيراً من الدهشة والتساؤل ، فمعنى ذلك أن الملك لا ينوى أن يعين رئيساً لوزرائه . وهو أمر لم يعرف منذ أكثر من خمسين سنة ، فيبطل بذلك تقليداً ثابتاً معروفاً ، وافترت

شفاه الوزراء ورجال البلاط عن ابتسامات التشكك والاستغراب . فأكد بعضهم أنها فورة شاب تهاداً من تلقاء نفسها ، وقال آخرون إنها نتيجة رد الفعل الناشئ عن تخلصه من الكاردينال ، واقتنع الجميع بهذا الرأي وعلى أن هذا الخماس سيهدأ في القريب العاجل .

ولكن هذا الخماس لم يهدأ ، لأنه إذا كان لويس الرابع عشر قد سمح لوزيره الأول أن يتصرف بكل حرية فإنه كان في الواقع يريد أن يتعلم منه مهنة الحكم . وقد ألم بها إلماماً تاماً وأصبح مقتنعاً تمام الاقتناع أن هذه المهنة أصبحت مألوقة ومعروفة لديه ومستبرهن الحوادث المقبلة أنه كان على حق فيما قرره .

لقد قال عنه مازاران يوماً ما : أنه يجمع نشاط أربعة ملوك وأنه رجل أمين ، وإذا كان مازاران قد أخطأ أحياناً في حكمه على بعض الأمور فإنه لم يخطئ إطلاقاً في حكمه على الرجال

ومنذ أن قرر لويس الرابع عشر أن يجمع في يده كل السلطات غرض على نفسه عملاً شاقاً مضنياً ، فكان يشتغل كثيراً ويمضى في عمله وقتاً طويلاً ويرأس كل المجالس ويفحص بنفسه كل شئون الدولة مع بعض وزرائه .

في ذلك الوقت كان هناك مجلس خاص يطلق عليه اسم المجلس السري وكان مؤلفاً من فوكيه وزير المالية وكولبير سكرتير مازاران وموضع ثقته التامة وقد أصبح فيما بعد من أعظم وزراء فرنسا ، ومن ليتينييه (ماركين دي لوفوا) للشئون الحربية ، وليون للشئون الخارجية

وكان أول ما عهد به الملك لهذا المجلس هو إصلاح الحالة المالية التي اضطربت من جراء استمرار الحروب الطويلة التي توجتها بالنصر معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ ومعاهدة البرينيه في ٧ نوفمبر سنة ١٦٥٩ وأصبحت فرنسا تتبوأ المكانة الأولى من الوجهة الدوائية كان النظام المالي سيئا عقيما ، وكان الموظفون أكثر منه سوءا فقد شاع بينهم التهاون والفساد وحب الرشوة والإهمال ، كما أن كفاح فرنسا الطويل في الحروب المضنية الشاقة كلف البلاد أن تبذل أكثر مافي طاقتها ، فحدث بالرغم من النصر ، رد فعل شديد من الناحية الاقتصادية بسبب إنهاك قوى البلاد ومواردها .

وكانت الضرائب ثقيلة ، وموزعة توزيعاً سيئاً ، وتجيى مقدما وكان نصف إيرادها يدخل في خزائن الملك ، فأصالح الملك هذه الأحوال بأن قرر تعديل الضرائب بحيث تخف وطأتها كثيرا عن عائق الممولين ، ومنع الاغتصاب ، وأنصف الناس ، وقضى على الرشوة وطهر الإدارة الحكومية ، وعاقب المستغلين للفرص الذين أفسدوا الحالة ، ووضع لها نظاما جديدة تكفل حسن سير العمل بكل دقة ونزاهة ، وأعفى الفلاحين من أكثر من ثلاثين مليون فرنك كانت متأخرة عليهم من سنة ١٦٤٧ إلى سنة ١٦٥٦ ، كما وضع تشريعا جديدا لأرباب العائلات قضى بأن يعفى كل من يتزوج من ضريبة ائرقووس لمدة خمسة أعوام ، وأن يعفى منها مدى الحياة كل رب أسرة له عشرة أولاد على أن يعتبر منهم على قيد الحياة الجنود الذين لاقوا حتفهم

تحت العلم وفيما بعد تقرر أن يمنح هؤلاء الآباء معاشاً ثابتاً وصل في بعض الحالات إلى ألفين من الجنيهات سنوياً .

كان يساعد لويس الرابع عشر في تنفيذ هذه المشروعات الإصلاحية الجلية الشاب كولبير الذي قال عنه مازاران وهو على فراش الموت للملك : « مولاي : إني مدين لكم بكل شيء ولكني أعتقد أني أوفى ديني لجلالتكم بإعطائكم كولبير ،

لم يكن مازاران مغالياً فيما قال للملك ، لأن كولبير الذي كان في سن الحادية والأربعين عندما ضمه الملك إلى المجلس السري ، امتاز بعقل راجح ، وفكر ثاقب ، وذكاء نادر ، وإنكار ذات ، وإخلاص لأحد له للملك وللوطن .

وأخذ الملك يعمل على توفير السعادة والرفاهية لشعبه ، وإن رغبة نبيلة كهذه كان يمكن أن تصل إلى نتائج باهرة في أقل وقت ممكن لو لم نصطدم بعقبات عرقلت سيرها ، وهي عقبات لم تنشأ إلا لأن الخزائن التي كانت تملأ بكل جد ونشاط ، حوت ثقباً سرية تنسرب منها أموالاً طائلة . فلا يعد ما يتبقى فيها يكفي لتنفيذ مشروعات الإصلاح النافعة ، وكان واضح هذه الثقوب السرية أحد أعضاء المجلس السري وهو نقولا بوكيه .

كان هذا الرجل بالرغم من ثرائه الشخصي ، قد استطاع أن يختلس من الدخل العام مبالغ طائلة لا يمكن تقديرها ، وكان ينفق هذه الأموال التي حصل عليها بوسائل غير مشروعة على شخصه . وفي الوقت الذي

لم تجد فيه الدولة الأموال لتشجيع الحركة الفكرية والفنية تولى بنفسه هذه المهمة ، فكان أكبر مشجع لهذه الحركة بأمواله الوفيرة فقد شجع الآداب والفنون والعلوم وكان رجلا عصريا حرا فكريا ، مستنيرا للرأى وكان الملك منذ وقت طويل على علم بخيانه فوكيه واختلاساته وسوء استعماله لسلطة وظيفته واستغلاله لها . إلا أن فوكيه هذا كان يتمتع بخطوة كبيرة لدى مازاران فضلا عن أنه كان قوى الشكيمة ، وجبارا مرهبا نظرا لمركزه الهائل وتعوزه القوى فى القاطعة بريتانى التى نظم فيها ثورات وانقلابات كما حصن جزيرة ويل ايل ، تحصينا قويا لى تكون وقت الضرورة قاعدة تموين الأسطول العدو ومركزا له . ولما ازدادت الحالة سوءا قرر الملك أن يعمل عملا حاسما ، ولكنه رأى أن يسير فى اجراءاته بكل حذر وروية حتى لا يؤدى عمله إلى معارضة أحد ، ولا يترتب عنه أى إخلال بالنظام العام .

فقرر أن يذهب لرئاسة الجمعية التشريعية لمقاطعة بريتانى ، وهناك دعاه فوكيه إلى الاستراحة فى قصر « قو » الهائل الذى كان قد أتم إعداده قبيل هذه الزيارة وأنفق عليه أكثر من ثمانية مليون فرنك . وفى ١٧ أغسطس سنة ١٦٦١ وصل الملك وحاشيته إلى هذا القصر الفخم ، الذى يعتبر من أعظم القصور التى شيدت فى القرن السابع عشر وأبدى الملك شديد إعجابه بما رأى . فلم يكن عيناها تنتهى من مشاهدة أعجوبة فنية رائعة ، إلا لتقع على أعجوبة أكثر روعة من سابقتها

فذهل بما رأى ، وازداد ذهوله عندما تنزه في الحدائق البديعة التي وضع تنسيقها « ليثوتر » ، فكانت مزدانة بعدد لا يحصى من الزهريات الجميلة والتماثيل الكبيرة والمغارات والجبال المنحوتة بالمرمر تتفجر منها شلالات ونافورات ماء تنعكس عليها أشعة الشمس ، فيحدث هذا الانعكاس ألوانا خلابة ساحرة ، وامتدت هذه الحدائق على مدى البصر فقد اشترت ثلاث قرى كبيرة وضمت إليها لتوسيعها ، وأخيرا شاهد الملك أسلحة فوكيه المتنوعة ودروع وأوسمته . وأقام فوكيه حفلة رائعة تكريما للملك ونفاني في إظهار سخائه إكراما لضيفه العزيز ، فشملت كل ما يمكن من ضروب الملاهي والمرح من رقص الباليه وموسيقى وغناء ومثلت فيها مسرحية « الثقلاء » لموليير لأول مرة فحازت نجاحا عظيما .

وأعد « قاتيل » أشهر طهاة العصر للعشاء مالد وطاب من أغر الأطعمة والمأكولات ، وقدم الطعام المتعدد الأصناف على ثلاثين مائدة مشحونة بالأواني والفضيات فكانت تحوى ٣٦ دسنة من أنواع المأكولات وخمسمائة دسنة من الصحاف والأطباق المصنوعة من الفضة الخاصة .

أثار هذا الإسراف وحفيظة الملك حتى إنه فكر في أن يأمر بالقبض على الوزير الخائن المختلس أثناء الحفلة ، ولكن الملكة الوالدة أثرت عليه فعدل عن فكره ، لا باعتبار أن الملك كان ضيفه فحسب بل إن أمرا كهذا يمكن أن يذاع قبل أن ينقذ فيعطى مجالا لفوكيه

لأن يهرب ويلجأ بلا شك إلى حصنه في جزيرة د بل آيل ، وربما يطلب النجدة من الخارج أو على الأقل يشير مقاطعة بريتاني وبذلك لا تنجح الخطة المرسومة القائمة على الحرس والسكران .

هذا لويس الرابع عشر ، وتظاهر بالبشاشة والسرور أمام مضيئه وانتهت الوليمة فاستعد الموكب الملكي ، الذي انضم إليه فوكيه بالرغم من أنه أصيب بجرح ، للسير متجهاً إلى نانت .

وفي قصر هذه المدينة استقبل الملك استقبالا حارا حماسيا ، وتجلى فيه للمرة الثانية سخاء وبذخ فوكيه ، فقد أحضر من أملاكه في د بل آيل ، قرويات جميلات رقصن أمام الملكتين رقصات قروية وهن بملابسهن التقليدية .

وفي خلال ذلك المرح ظهر الملك أكثر وجوما عما كان في قصر قو ، واعتقد رجال الحاشية أنه لا بد قد استاء من تصرفات د كولبير ، وسرت الإشاعات بأن هذا الأخير سيقبض عليه بلا شك .

وفي صباح اليوم التالي عقد مجلس خاص ، وبعد أن فضت الجلسة غادر فوكيه القصر ليذهب إلى الكنيسة ، وما كاد يجتاز الباب حتى لقي أمامه بعض الفرسان يدل مظهرهم على أنهم ينتظرون شخصاً معيناً ، فابتسم اعتقاداً منه أنهم يرتقبون خروج كولبير للقبض عليه ولكنهم عندما شاهدوه تقدم منه قائدهم دارتنيان وهو يمسك في يده ورقة ممهورة بخاتم الملك وقال له : د باسم الملك ألقى القبض عليك ، اختفت الابتسامة ، واقتيد فوكيه إلى د أنجيه ، حيث سجن في

قلعتها ، وهكذا بين غمضة عين وانتباهتها انهارت قوته التي كان يخشاها
الملك ويحسب لها ألف حساب ، ولم يتحرك أحد للدفاع عنه لا في
بريتاني ولا في ديل آيل ، وبدأت محاكمته التي دامت ثلاث سنوات ،
وقضى على أغنى الأغنياء بالسجن مدى الحياة في قلعة « بينيرول » .
وفي اليوم التالي لاعتقال فوكيه ، منح كولبير لقب وزير ، وأخذ
معظم امتيازات وسلطات مسجين ، أنجييه ، ولكن لم يعد يوجد وزير
للمالية فقد قرر لويس الرابع عشر أن يحتفظ لنفسه بالإدارة الفعلية
لمالية الدولة .